# 36 - السيدة أم أيمن

## حاضنة رسول الله ﷺ

اسمها بركةُ، والدها ثعلبةُ بنُ عمرٍو، وكنيتها أم أيمن الحبشية تزوجت عبيدَ بنَ زيد فأنجبت له أيمن، ثم تزوجت حِبَّ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فولدت له حِبَّ حِبِّ رسول الله ﷺ أسامة بن زيد.

توفي عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله ﷺ وآمنة بنت وهب ما تزال حاملاً به وترك فيما ترك جارية له تدعى بركة الحبشية، فأصبحت حاضنته، وكان يناديها: «**يَا أُمِّي**».

وقد غمرته بعطفها وحنانها ولا سيما حين فقد أمه في السادسة من عمره، ولما توفي جده عبد المطلب في الثامنة من عمره كفله عمه أبو طالب وكانت أم أيمن ترعاه مع أمه الثالثة فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب.

وتذكر ما رأته أم أيمن من بركة رسول الله ﷺ فتقول: ما رأيت رسول الله ﷺ شكا جوعاً قط ولا عطشاً، فكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة، فربما عرضنا عليه الغداء فيقول: «**لا أُرِيدُ أَنَا شَبْعَانُ**»، وما أكل شيئاً في يومه.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بنو أبي طالب يصبحون رُمْصاً شُعْثاً، ويصبح محمد ﷺ دهيناً كحيلاً، وكان أبو طالب يحبه حبّاً شديداً.

ولما تزوَّج رسول الله ﷺ السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أعتق أم أيمن برّاً بها ووفاءً لها، واعترافاً بفضلها، وتقديراً لإخلاصها في تربيته، فتزوجت عبيد بن زيد الخزرجي، وأثمر الزواج عن أيمن، ولكن بركة فقدت ابنها بعد أن سقط شهيداً يوم حنين.

وكان لرسول الله ﷺ فيها أقوال كثيرة، فتارة يقول لها: «يَا أُمَّه»، وتارة يقول: «أُمُّ أَيْمَنَ، أُمِّي بعْدَ أُمِّي»، ونظر إليها ذات مرة فقال: «هَذِهِ بَقِيَّةُ أَهْلِ بَيْتِي»[1].

## امرأة من الجنة

ولقد تعرَّضت أم أيمن لأزمة بعد أن أشرقت شمس الإسلام، فقد بادرت إلى تصديق رسول الله ﷺ والإيمان برسالته فاشترت نفسها من النار، غير أن زوجها عبيد بن زيد أبى الإسلام واستكبر، وأقام على شركه، فكان الفراق والانفصال عن أم أيمن محتوماً.

وأما زواجها الثاني فقد روى سفيان بن عقبة قال: كانت أم أيمن تَلْطُفُ[2] رسول الله ﷺ وتقوم عليه فقال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنَ الجَنَّةِ فَلْيَتَزَوَّجْ أُمَّ أَيْمَنَ»[3].

قال: فتزوَّجها زيد بن حارثة، وزيد ﷺ أحد سادات الصحابة، وحِبُّ رسول الله ﷺ ومولاه، وأحد السابقين إلى الإسلام، فلما سمع هذا الحديث من النبي ﷺ سارع فتزوَّجها، فولدت له أسامة بن زيد الحِبَّ ابن الحِبِّ، وما أدراك ما الحِبُّ ابن الحِبِّ؟ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وأرضاهم أجمعين.

ولو قلَّبنا صفحاتٍ من حياة أم أيمن لعلمنا أنها ليست بالمرأة العادية كباقي النساء، ولرأيناها تفيض بالإشراق والضياء، فبعد أن حظيت بحب رسول الله ﷺ لها وتكريمه إياها، أصابها من كرم الله تعالى ما دلَّ على رفعة منزلتها وعلوِّ شأنها.

وقد أخرج ابن سعد في طبقاته فقال: لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء فعطشت وليس معها ماء، وهي صائمة فجهدها

---

(1) طبقات ابن سعد (8/ 223).

(2) تَلْطُفُ: تُكْرِمُ.

(3) الإصابة (13/ 178)، وحلية الأولياء (2/ 68)، وطبقات ابن سعد (8/ 224).

العطش، فدُلِّي عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فأخذته فشربت منه حتى رويت.

فكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطشٌ، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة، وإني كنت لأصوم في اليوم الحار فما أعطش[1]، فهنيئاً لك تلك الشربة التي خصَّك بها الرحمن، وأي شرابٍ أعذب من ماء الجِنان؟

ولقد كانت لأم أيمن هجرتان، كانت الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة حين رافقت آل بيت رسول الله ﷺ، وفي هذا من الفضل ما فيه، وقليلٌ من يصل إليه أو يدانيه.

## شجاعتها ومحبتها للجهاد

ولو تساءلنا عن شجاعة أم أيمن لرأينا أنها لا تقلُّ عن الرجال في شجاعتهم، وقوة شكيمتهم، وشدة بأسهم، بل إنها تفوَّقت على كثيرٍ منهم يوم ولوا مدبرين، ولاذوا بالفرار يوم أُحد، ودهشت مما يصنعون، ثم أخذت أم أيمن ﷺ تحثي التراب كلما مرَّ بها فارٌّ، وتقول له: «هاك المغزل فاغزل به، وهَلُمَّ سيفك»[2]، تقصد أنه امرأة ولو كان رجلاً لقاتل.

وتألمت أم أيمن لما أصاب رسول الله ﷺ من كسر رباعيته، وشق شفته، والدماء التي غطَّت وجهه الشريف، ولكنها قرَّت عيناً بعد أن رأته واطمأنت على سلامته، وقد رماها أحد المشركين بسهم فسقطت أرضاً، وحين رآها رسول الله ﷺ ناول سعد بن أبي وقَّاص سهماً من غير نصلٍ، وقال له: «**اِرْمِ سَعْدُ**»، فرمى سعدٌ من رماها فأصابه، فقال رسول الله ﷺ: «**اِستَقَادَ لَهَا سَعْدٌ، أَجَابَ اللهُ دَعْوَتَكَ، وَسَدَّدَ رَمْيَتَكَ**».

وتابعت أم أيمن سقايتها للعطاش وتضميدها للجراح، ولما كان يوم

(1) طبقات ابن سعد (8/ 224).

(2) دلائل النبوة للبيهقي (3/ 311).

خيبر لم تتخلَّف أم أيمن عن الخروج مع النسوة اللاتي شهدن فتح خيبر، وحضرت وصول جعفر بن أبي طالب مع المهاجرين العائدين من الحبشة، وسمعت قول رسول الله ﷺ له: «**مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أُسَرُّ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ، أَمْ بِقُدُوْمِ جَعْفَرٍ؟**».

كانت أم أيمن عالية الهمة موفورة النشاط، وقد لامت ابنها أيمن لعدم خروجه إلى خيبر، غير أن أيمن كان معروفاً بشجاعته، ولم يكن تخلُّفه عن جبنٍ أصابه بل بسبب مرضٍ مهره يومئذٍ.

## استشهاد زوجها

ودَّع زيد بن حارثة زوجه أم أيمن بعد أن استعمله رسول الله ﷺ مع جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة على الجيش الذي عزم على إرساله إلى مؤتة لقتال الروم، ولم يَدُرْ في خلدها أن ذلك الوداع لا لقاء بعده، وكان زيد أول الأمراء الثلاثة استشهاداً، ثم تلاه جعفر، وتبعهما ابن رواحة، ولما سمعت أم أيمن رسول الله ﷺ ينعي للمسلمين شهداء مؤتة لم تجد إلاّ أن تعتصم بالصبر وتستسلم لمشيئة صاحب الأمر تعالى شأنه وعلا سلطانه.

فلما كان يوم حنين دفعت أم أيمن بابنيها أيمن وأسامة ليخرجا مع المسلمين، وتأكَّد لها أن ابنها أيمن لم يكن مع الجبناء الذين فرُّوا، ولكن كان بين الثلة التي صمدت حول رسول الله ﷺ، واستُشهد يومها دونه – رحمه الله تعالى – واحتسبت أم أيمن ولدها، وغبطت لحاقه بزوجها زيد إلى دار الأبرار، مع الخالدين.

## مكانتها من رسول الله ﷺ

وكان رسول الله ﷺ يحسن معاملة أم أيمن أيما إحسان، ويمازحها في بعض الأحيان، فقد جاءت إليه ذات مرة فقالت له: «يا رسول الله، احملني»، فقال لها ﷺ: «**أَحْمِلُكِ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ**»، فقالت: «يا رسول الله،

إنه لا يطيقني، ولا أريده» فقال ﷺ: «**لاَ أَحْمِلُكَ إِلاَّ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ**»؛ وكان قوله الحقَّ فالإبل كلها من ولد النوق[1].

ولم تكن أم أيمن لتتحرَّج في أن تتدلَّل على رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ لحسن معشره، وكريم أخلاقه يسايرها ولا يردها عن تصرُّفٍ قد تتجاوز فيه الحدَّ، وما ذاك إلاَّ لمكانتها عنده، وتقديره الكبير لها، فقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: شرب رسول الله ﷺ يوماً وأم أيمن عنده، فقالت: يا رسول الله، اسقني فقلتُ لها: ألرسول الله ﷺ تقولين هذا؟!!! فقالت: ما خدمته أكثر، فقال النبي ﷺ: «**صَدَقَتْ أُمُّ أَيْمَنَ**»، فسقاها بيده الكريمة.

وأية غرابة أن يصدر مثل هذا عن رسول الله ﷺ، إذا كان خالقه يقول عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 6].

## مشاركتها بيوت النبوة أحزانها وأفراحها

كانت أم أيمن رضي الله عنها - وكأنها من بيت النبوة، تفرح إذا فرحوا، وتحزن إذا نزلت بهم الأحزان، وكانت تنصر الحق حيثما كان، وتحارب الكذب والبُهتان، ويوم حادثة الإفك التي وقعت لأم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما سألها رسول الله ﷺ: «**يَا أُمَّ أَيْمَنَ، أَيُّ امْرَأَةٍ تَعْلَمِينَ عَائِشَةُ؟**»، فردَّت أم أيمن رضي الله عنها: حاشى سمعي وبصري أن أكون علمت أو ظننت بها إلَّا خيراً، إن الإسلام الذي هذَّب أم أيمن وهداها بنوره لم يمل بها عن الحق قيد شعرة، وخسر وخاب المفترون! لقد ظلموا أمنا بافتراءاتهم وتخرُّصاتهم وبهتانهم، ولكن العلي الكبير الذي حرَّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرَّماً، بعث أمينه جبريل عليه السلام بآياتٍ بيِّناتٍ من الهدى والفرقان، فزهق الباطل، ودحض البهتان، فما أعظم من يدافع عنها الملك الديّان!!

(1) طبقات ابن سعد (8/ 224).

وشهدت بركة بنت ثعلبة رضي الله عنها وفاة أم المؤمنين السيدة خَدِيْجَةَ رضي الله عنها وغسلتها بيديها، فيا لهاتين اليدين اللتين لامستا جسد الطاهرة المطهَّرة!! ويا للطيب الذي ضمَّخهما!! وغسلت أيضاً زينب بنت رسول الله ﷺ مع بعض النسوة اللواتي حضرن غسلها، وكذلك غسلت سودة بنت زمعة، وأم سلمة رضي الله عنهن .

أما مشاركة أم أيمن في أفراح البيت النبوي فتمثَّلت في حضورها زفاف سيدة النساء فاطمة الزهراء رضي الله عنها من فارس الإسلام علي بن أبي طالب – كرَّم الله وجهه –، وشهدت ذلك العرس الفذَّ معها يومئذٍ أسماء بنت عميس الصحابية الفريدة، ودعا لها رسول الله ﷺ لأجل حضورها، وكان عرساً مشهوداً ضمَّ بعض أهل الأرض، وبعض أهل السماء، فما كان أجمله من لقاء!!

## حزنها الشديد لدى وفاة النبي ﷺ

وكان أعظم ما دهيت به أم أيمن رضي الله عنها يوم انتقل ربيبها ورسولها الحبيب الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فقد بهظها الخطب، وهدَّها الكرب، وغمرتها الأحزان، وفاضت بها الآلام، وعلى الرغم من أنها كانت عثراء اللسان كما كان يقول عنها رسول الله ﷺ فقد رثته بهذه الأبيات المعبِّرة عن مكنون حبِّها وولائها وتقديرها لمن كان معها كريماً، وبها شفوقاً رحيماً، فقالت:

عَيْنُ جُودِي فَإِنَّ ذَلِكَ لِلدَّمْـ ... ـعِ شِفَاءٌ فَأَكْثِرِي مِن البُكَاءِ

حِيْنَ قَالُوا: الرَّسُولُ أَمْسَى فَقِيْداً ... مَيِّتاً كَانَ ذَاكَ كُلُّ البَلاَءِ

وَابْكِيَا خَيْرَ مَنْ رُزِئْنَاهُ فِي الدَّنْـ ... ـيَا وَمَنْ خَصَّهُ بِوَحْيِ السَّمَاءِ

بِدُمُوعٍ غَزِيْرَةٍ مِنْكَ حَتَّى ... يَقْضِيَ اللهُ فِيْكَ خَيْرَ القَضَاءِ

فَلَقَدْ كَانَ مَا عَلِمْتُ وَصُولاً ... وَلَقَدْ جَاءَ رَحْمَةً بِالضِّيَاءِ

وَلَقَدْ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ نُوراً ... وَسِرَاجاً يُضِيْءُ فِي الظَّلْمَاءِ

طَيِّبَ العُودِ وَالضَّرِيْبَةِ وَالمَعْـ ـدِنِ وَالخَتْمِ خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ

لقد أطلق الله تعالى لسانها بهذه الأبيات إكراماً لنبيه الكريم، ورسوله السند العظيم، عليه صلوات الله وسلاماته إلى يوم الدين، فيا لها من مكرمةٍ لم تتح إلاَّ للأقلِّين!!

وكان آخر جيش جيَّشه رسول الله ﷺ جيش أسامة بن زيد، ابن أم أيمن، وقبل أن ينطلق أسامة رضي الله عنه وَجِعَ رسول الله ﷺ، وجاء الصحابة وفيهم أسامة رضي الله عنه، ثم فاض الروح الطاهر الشريف إلى بارئه، وبعد أن وروي ﷺ الثرى سمع الصِّدِّيق رضي الله عنه أصواتاً تهمس معترضة على إمارة أسامة، ثم علت تلك الأصوات مطالبة بتأمير من هو أسنُّ منه، ولكن الصِّدِّيق أبى أن ينقض ما أبرمه رسول الله ﷺ، واستأذن أسامة أن يُبْقِي له عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، ليستعين به في خلافته لرسول الله ﷺ، فأذن له أسامة، ثم انطلق بجيشه، فأدَّى مهمته، ثم عاد بالنصر المؤزَّر.

أرأيتم أيها الناس كم هو عظيم الإسلام، الذي أعطى أسامة وأمه وأباه، تلك المكانة الرفيعة التي جعلت خليفة المسلمين يستأذنه وكبار الصحابة يأتمرون بما يأمر به؟! فما أكرمه من دين! وما أسماه من يقين!

## تقدير الصحابة لها

وبقيت أم أيمن رضي الله عنها محل تقدير لها، وموضع احترامهم، لما يعرفونه من مكانتها عند رسول الله ﷺ، وقد روى أَنَسٌ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا[1].

(1) رواه: مسلم/ كتاب: فضائل الصحابة/ باب: من فضائل أم أيمن/ برقم: (4492).

وقد روى مسلمة بن محاربٍ قال: قال معاوية بن أبي سفيان لأسامة بن زيد ﷺ: رحم الله أم أيمن، كأني أرى ساقيها وكأنهما ساقا نعامة، فقال أسامة ﷺ: كانت والله خيراً من هندٍ – أم معاوية – وأكرم، فقال معاوية: وأكرم أيضاً؟!! فقال أسامة: نعم والله، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13]، فهل بعد قول الله قولٌ لقائلٍ؟ فسكت معاوية.

وبعد رحيل رسول الله ﷺ بخمسة أشهر تقريباً فارقت بركة أم أيمن الحياة، رحمها الله تعالى، ورضي عنها.

obeikandl.com